أعلام العرب

٢٦

الكِندي

فيلسوف العرب

تأليف

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

فيلسوف العرب

فيلسوف العرب أم فيلسوف الاسلام .

قضية اختلف القدماء فى شأنها عند اختيار اللقب الذى ينعتون يعقوب الكندى به ، فسماه بعضهم فيلسوف العرب ، وأطلق عليه البعض الآخر فيلسوف الاسلام .

قال ابن النديم فى الفهرست : « فاضل دهره ، وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها ، ويسمى فيلسوف العرب »

وقال القفطى فى أخبار الحكماء : « أبو يوسف الكندى ، المشتهر فى الملة الاسلامية بالتبحر فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية . متخصص بأحكام النجوم وأحكام سائر العلوم . فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها » .

وذكر ابن نباتة المصرى فى سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون : « الكندى هو يعقوب بن الصباح المسمى فى وقته فيلسوف الاسلام » .

وانما وقع هذا التباين لأن دائرة العروبة لا تطابق تمام المطابقة دائرة الاسلام . فقد كان من العرب نصارى وصابئة ويهود ومجوس ، كما كان من المسلمين ترك وعجم وغير ذلك من أهل الأجناس الأخرى غير العربية . وفى الوقت الذى ظهر الكندى فيه على مسرح الفكر كان معظم المشتغلين بالعلم والفلسفة ان

لم يكن جميعهم نصارى وصابئة ، وكان من الطبيعى أن يعنى بالفلسفة أولئك الذين كانوا من المشتغلين بها قبل دخولهم فى الاسلام ، وكان أغلبهم من السريان والصابئة .

ولكن العامل المشترك بينهم جميعا ، سواء أكانوا مسلمين أم أصحاب ديانات أخرى غير الاسلام ، وسواء أكانوا عربا أم من أجناس أخرى غير عربية ، هو اصطناعهم اللغة العربية أداة للتعبير عن الفلسفة ، بعد أن كانت مدونة باليونانيـــة أو السريانية أو الفارسية أو الهندية . لا نزاع أن اللغة أساس هـــام من أسس القومية ان لم يكن رأسها ، الا أنه ليس الأساس الوحيد ، اذ لابد أن يضاف اليه التاريخ المشترك ، والقيم الروحية ، والحضارة المشتركة . ولقد كتب كثير من اليهود والنصارى والصابئة مؤلفات باللسان العربى بعد انتشار الاســـلام واستقرار قواعـــد الدولة الاسلامية ، من مثل حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين ؛ وثابت بن قرة ، وقسطا بن لوقا ، وغيرهم كثيرون ، ولم يقل أحد ان أى واحد منهم هو فيلسوف العرب .

كانت علوم الطب والهندسة والهيئة والحساب والفلســـفة احتكارا فى أيدى نصارى السريان ، وفى أيدى الصابئة ، وكذلك بعض الفرس . ذلك أن علوم اليونان وفلسفتهم كانت قد انتقلت من أثينا الى الاسكندرية ، ثم من الاسكندرية الى مدن الشام ، كما انتقلت العلوم والفلسفة بطريق آخر الى جنديسابور بعـــد أن أمر الأمبراطور جستنيان باغلاق المدارس الفلسفية فى أثينا . وفى مدينة جنديسابور نقلت هندسة أقليدس ، وطبيعة أرشميدس ،

وفلك بطليموس ، وطب بقراط وجالينوس ، وفلسفة أرسطو وشراحه كالاسكندر الأفروديسى وثامسطيوس الى السريانية ، ونقل القليل منها الى الفارسية . ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة وأنشأ مدينة بغداد استدعى الطبيب جورجيس بن بختيشوع من جنديسابور الى دار السلام سنة مائة وثمانوأربعين ليعالجه ، واتخذه طبيبه الخاص ، وكان من قبل رئيس أطباء جنديسابور . ومنذ ذلك الوقت بدأت حركة الترجمة الى العربية — وبخاصة كتب الطب — تقوى ، وظل العلاج فى أيدى النقلة من نصارى السريان الذين كان المسلمون يثقون بهم ولا يثقون بغيرهم ، كما روى الجاحظ فى كتاب البخلاء متحدثا عن أسد ابن جانى ، قال : « وكان طبيبا فأكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبيئة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة فانى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب . واسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبا ، ومراسل ، ويوحنا ، وبيرا . وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو ابراهيم . وعلىّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون علىّ رداء حرير أسود . ولفظى عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل « جنديسابور » .

لم يكن غريبا اذن أن ينهض أطباء النصارى للدفاع عن أنفسهم ضد ذلك الذى يريد أن ينتزع منهم الصناعة التى يزهون

بها على غيرهم ، ويكسبون بها القوة والمنزلة ، وتجلب لهم المال الوفير ، وتقربهم من السلطان . ولقد ذهبت العصبية بأهل جنديسابور الى الحد الذى جعلهم ينكرون على غيرهم تعلم صناعة الطب ، وكأنهم أرادوا أن يكون هذا الفن وقفا عليهم لا ينافسهم فيه أحد غيرهم من نصارى أو مسلمين . ويؤيد ما نقوله ما ذكره ابن أبى أصيبعة أن : « حنين بن اسحاق كان يقرأ على يوحنا بن ماسويه كتاب فرق الطب الموسوم باللسان الرومى والسريانى بهروسيس . وكان حنين اذ ذاك صاحب سؤال ، وذلك يصعب على يوحنا . وكان يباعده أيضا من قلبه أن حنينا كان من أبناء الصيارفة من أهل الحيرة ، وأهل جنديسابور خاصة ومتطببوها ينصرفون عن أهل الحيرة ، ويكرهون أن يدخل فى صناعتهم أبناء التجار » .

وقد أورد ابن النديم عند ذكر تآليف الكندى الطبيات أسماء بضع وعشرين رسالة ، لم يبق منها مع الأسف شىء نستطيع أن نعرف مذهبه فى الطب والعلاج ، منها رسالته فى الطب البقراطى ، ورسالته فى تدبير الأصحاء ، ورسالته فى كيفية الدماغ وغيرها . وقد حفظ لنا القفطى قصة — ان صحت — فانها تدل على شهرة الكندى فى الطب ، ورسوخ قدمه فى هذه الصناعة . ونحن ذاكرون هذه القصة بتمامها لطرافتها ، قال :

« وقد ذكروا من عجيب ما يحكى عن يعقوب بن اسحاق الكندى هذا ، أنه كان فى جواره رجل من كبار التجار موسع عليه فى تجارته . وكان له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه ، وضبط

دخله وخرجه . وكان ذلك التاجر كثير الازراء على الكندى ، والطعن عليه ، مدمنا لتعكيره والاغراء به . فعرض لابنه سكتة فجأة ، فورد عليه من ذلك ما أذهله ، وبقى لا يدرى ما الذى له فى أيدى الناس وما لهم عليه ، مع ما دخله من الجزع على ابنه . فلم يدع بمدينة السلام طبيبا الا ركب اليه واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج . فلم يجبه كثير من الأطباء لكبر العلة وخطرها الى الحضور معه . ومَن أجابه منهم ، فلم يجد عنده كبير غناء .

فقيل له : أنت فى جوار فيلسوف زمانه ، وأعلم الناس بعلاج هذه العلة ، فلو قصدته ، لوجدت عنده ما تحب . فدعته الضرورة الى أن تحمّل على الكندى بأحد اخوانه ، فثقل عليه فى الحضور ، فأجاب ، وصار الى منزل التاجر . فلما رأى ابنه ، وأخذ مجسه ، أمر بأن يحضر اليه من تلاميذه فى علم الموسيقى مَن قد أتقن الحذق بضرب العود ، وعرف الطرائق المحزنة والمزعجة والمقوية للقلوب والنفوس . فحضر اليه منهم أربعة نفر ، فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه ، وأن يأخذوا فى طريقة أوقفهم عليها ، وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم على الدساتين ونقلها . فلم يزالوا يضربون فى تلك الطريقة والكندى آخذ مجس الغلام ، وهو فى ذلك يمتد نَفَسُه ، ويقوى نبضه ، ويرجع اليه نفسه شيئا بعد شىء ، الى أن تحرك ، ثم جلس وتكلم ؛ وأولئك يضربون فى تلك الطريقة دائما لا يفترون . فقال الكندى لأبيه : سل ابنك عن علم ما تحتاج الى علمه ، مما لك وعليك ، وأثبته .

فجعل الرجل يسأله وهو يخبره ، ويكتب شيئا بعد شيء . فلما أتى على جميع ما يحتاج اليه غفل الضاربون عن تلك الطريقة التى كانوا يضربونها وفتروا . فعاد الصبى الى الحال الأول وغشيه السكات . فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ما كانوا يضربون به ؛ فقال : هيهات ! انما كانت صبابة قد بقيت من حياته ، ولا يمكن فيها ما جرى ، ولا سبيل لى ولا لأحد من البشر الى الزيادة فى مدة مَن انقطعت مدته ، اذ قد استوفى العطية ، والقسم الذى قسم الله له » .

هذه الحكاية ان دلت على شيء فانما تدل على تربع الكندى على عرش الشهرة فى صناعة الطب ، بل فى ابتكار العلاج أيضا بما يناسب حالة المريض .

ومما يدل على مزاحمة الكندى لأطباء النصارى ، وانتزاعه قصب السبق منهم ، أن ثابت بن قرة كان معاصرا له ، مشهورا بالترجمة ، بارزا فى الطب والفلسفة . ذكره ابن أبى أصيبعة وقال ان من تآليفه : « كتاب الوقفات التى فى السكون الذى بين حركتى الشريان المتضادتين ، مقالتان . صنف هذا الكتاب سريانيا ، لأنه أومأ فيه الى الرد على الكندى ، ونقله الى العربى تلميذ له يعرف بعيسى بن أسيد النصرانى ، وأصلح ثابت العربى . وذكر قوم أن الناقل لهذا الكتاب حبيش بن الحسن الأعسم ؛ وهذا غلط . وقد رد أبو أحمد الحسين بن اسحاق بن ابراهيم المعروف بابن كرنيب على ثابت فى هذا الكتاب ، بعد وفاة ثابت، بما لا فائدة فيه ولا طائل . وهذا الكتاب أنفذه لما صنفه الى

اسحاق بن حنين ، فاستحسنه استحسانا عظيما ، وكتب فى آخره بخطه يقرظ أبا الحسن ثابتا ، ويدعو له ، وينصفه » .

ذكرنا هذه القصة نبغى من اثباتها بيان المنافسة الشديدة بين أطباء النصارى وبين الكندى الطبيب المسلم . وقد انحاز الى جانب ثابت تلميذه عيسى النصرانى ، وقيل حبيش وهو نصرانى كذلك ، ثم أيد اسحاق بن حنين ثابتا ، واستحسن رأيه ، وقرظه ، وأنصفه ، وحرص أن يثبت هذا كله بخط يده . وسنشير الى هذه القصة فيما بعد للاستشهاد على معرفة الكندى اللغة السريانية . أما الآن ، فالذى يعنينا أنه كان أول فيلسوف عربى مسلم ، انتزع هذه الصناعة من أيدى نصارى السريان الذين لم تكن لغتهم الأصلية العربية .

* * *

قلنا فى ابتداء هذا الحديث ان القدماء اضطربوا فى وصفه أهو فيلسوف العرب أم فيلسوف الاسلام ، حتى اذا كنا فى القرن التاسع الهجرى نجد أن ابن حجر يضطرب كذلك ، فيترجم له مرتين فى موضع متقارب جدا ، وكأنه يترجم لشخصين مختلفين . ففى لسان الميزان ، الجزء السادس صفحة ٣٠٥ ، الترجمة رقم ١٠٩١ ، يقول ابن حجر عنه : « يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث الكندى ، فيلسوف العرب ، يكنى أبا يوسف ... » وفى صفحة ٣٠٧ ، الترجمة رقم ١١٠٢ ، يقول عنه : « يعقوب بن الصباح .. ابن الأشعث الكندى ، فيلسوف الاسلام » . ويبدو أن ابن حجر

قد خُيِّل اليه أن فيلسوف العرب شيء ، وفيلسوف الاسلام شيء آخر ، وذلك على الرغم من أنه أورد اسمه واسم آبائه وأجداده كاملا ، مما كان ينبغى أن يفطن معه الى أن الرجل واحد.

حتى اذا مضينا عبر التاريخ من القرن التاسع الى الرابع عشر الهجرى ، نجد أن أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق قد فصل فى هذه القضية التى عرضنا لها فى أول هذا الكلام بحيث يمزج بين العروبة والاسلام . فهو فيلسوف العرب، ولكنه فى الوقت نفسه عربى مسلم . وهذا نص عبارته : « والكندى كان جديرا بهذه التسمية فى وقته وسيظل بها جديرا . فانه أول عربى مسلم مهد للفلسفة سبيل الانتشار بين العرب وفى ظل الاسلام »[1] .

ويبدو أن الأستاذ مصطفى عبد الرازق كان فى الواقع مضطربا فى ترجيح أى الوصفين ، ولو أنه كان يميل الى القول بأنه فيلسوف العرب . فقد بدأ العبارة بأنه «فيلسوف العرب » كما جاء عند القفطى وابن أبى أصيبعة ، ثم نقل رأى ابن نباته من أنه « فيلسوف الاسلام » ، وعقب على هذا كله ، وبعد ذلك ، بأنه : « كان جديرا بهذه التسمية » . فأى تسمية لعمرى يقصد ، العرب أم الاسلام ؟

والرأى عنده — كما ذكرنا — أنه أول عربى مسلم . أما أنه عربى فلأنه :

---

(١) مصطفى عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثانى — القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤٨ .

(أولا) : مهد للفلسفة سبيل الانتشار بين العرب .

(ثانيا) : لأن النقلة قبله كانت ترجمتهم حرفية وبيانهم العربى ضعيفا ، حتى جاء الكندى يترجم بنفسه ويصلح هذه التراجم ليسهل تناولها ، ولكيلا تنفر من أساليبها أذواق العرب .

(ثالثا) : أنه يسر الموضوعات الفلسفية المترجمة ولخصها ، وجاهد فى تزيين الفلسفة فى أعين العرب .

أما أنه مسلم ، فلأنه :

(أولا) : « لم يكن فى الاسلام مَن اشتهر عند الناس بمعاناة علوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفا غير يعقوب هذا » كما ذكر ابن أبى أصيبعة .

(ثانيا) : أنه هو الذى وجه الفلسفة الاسلامية وجهتها ، فسارت فى سبيلها على أيدى تلاميذه .

(ثالثا) : أنه عاش فى ظل الدولة الاسلامية[1] .

* * *

ونود قبل أن ننظر الى الكندى فى ضوء العصر الحاضر أن نثبت رأى مؤرخ اعتبر فيلسوفنا اسلاميا لا عربيا ، فقال انه : « أول من تبحر من المسلمين فى الفلسفة وسائر أجزائها من المنطق والطبيعيات والرياضيات والالهيات ، مع تبحره فى علوم العرب ، وبراعته فى الآداب من النحو والشعر . وكان يعرف الطب ، والنجوم وأحكامها ، وضروبا من الصناعات والمعارف التى قل

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ ـ ٤٩ ، ملخصا .

أن تجتمع فى انسان واحـد . وفهرسـة كتبه تزيد على دست كاغـد .. » .

و « الكاغد » بالفارسـية يعنى الورق ، و « دست » هى اللفظة التى درجت فى اللغة العامية بقولنا « دستة » أى اثنا عشر. ولا غرابة أن يستخدم الشهرزورى[1] هذه الألفاظ الفارسية ، لأنه فارسى متعصب لقوميته ، وهذه هى العلة التى جعلته يؤثر أن يجعل الكندى أول فلاسفة الاسلام .

* * *

وتمضى عجلة التاريخ فى الوقت الحاضر فى سرعة سريعة تليق بعصر الذرة والصواريخ الذى نعيش فيه ، فننظر اليوم الى القضية بمنظار هذا العصر ، عصر القومية العربية ، فاذا بالكندى يبدو لنا « فيلسوف العرب » بحق . لا لأنه كان مسلما ، فقد ظهر كثير من الفلاسفة كانوا مسلمين كالفارابى المعلم الثانى ، والشيخ الرئيس ابن سينا ، والرازى الطبيب ، والبيرونى ، وابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وغيرهم وغيرهم ممن كانوا يدينون بالاسلام ، ولكن لم ينعت أحدهم بأنه « فيلسوف العرب » ، وانما جرت على أقلام المؤرخين أنهم الفلاسفة الاسلاميون . وكان معظمهم من أجناس غير عربية ، كالفارابى الذى كان تركيا ، وابن سينا الذى كان فارسيا . ونحن نعـلم أن الشيخ الرئيس على الرغم من أنه كتب معظم مؤلفاته باللغة العربية الا أنه كتب أيضا بالفارسية بعض مؤلفاته . وللغزالى وهو حجة للاسلام تآليف بالفارسية .

(١) الشهرزورى ـ نزهة الأرواح ـ مخطوط .

لقى العرب فى أثناء تاريخهم الطويل منذ ظهور الاسلام حتى الوقت الحاضر هجوما عنيفا من جميع الشعوب المحيطة بهم ، القريبة منهم والبعيدة على حد سواء . ولكن الطعنات القاتلة جاءتهم من جيرانهم الأقربين ، ومن أولئك الذين انضووا تحت لواء الاسلام ووجهوا اليهم الطعنة من الداخل .

نجح الشعوبيون فى بث الفكرة القائلة بأن العرب أبعد الناس عن العمران والمدنية حتى ان ابن خلدون كتب فى مقدمته يقول ان العرب أبعد الناس عن الصنائع وأن السبب فى ذلك أنهم أعرق فى البدو ، وعن العمران الحضرى وما يدعو اليه من الصنائع . وأن العجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومى أقوم الناس عليها ، لأنهم أعرق فى العمران الحضرى ، مما يتنافى مع حقيقة واقع التاريخ ، ولكنها نغمة الشعوبية لا تكاد تخبو حتى تستيقظ مرة أخرى .

ليست العروبة جنسا ، ولا لغة ، ولا دينا ، ولا آمالا وآلاما مشتركة فقط ، وانما هى حضارة معينة تحوى هذا كله ، وتهتدى بمثل عليا تجعل الناس يتمسكون بهذه القومية ، ويقبلون عليها ويقبلونها .

والعلوم المختلفة هى الأساس الذى تقوم عليه الحضارات . والفلسفة هى التاج الذى يجمع أطراف هذه الحضارة . والدين هو الروح الذى ينفح فيها الحياة . وقد استطاع الكندى أن ينطق بلسان العروبة من جهة دينها وهو الاسلام ، ومن جهة العلوم الحضارية التى ترفع من شأن الأمم ، فألم بهذه العلوم

وأحسن تلخيصها ، وكتبها بلغة عربية سليمة ، ووضع لها مصطلحات قريبة المأخذ جارية فى الاستعمال مقبولة عند الذوق. وهكذا أثبتت اللغة العربية بألفاظها وتراكيبها أنها لغة حضارة ، فاستطاعت القومية العربية أن تقف على قدميها ثابتة فى معركة القوميات ، وأن تنتصر فى هذه المعركة عدة قرون من الزمان .

ان ما فعله الكندى ، سليل العرب جنسا ولغة ودينا ، يدحض بأبين دليل وأوضح برهان ما ذهب اليه ابن خلدون من أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب ، وأنهم أبعد الناس عن الصنائع والعمران .

لقد ظلت راية القومية عالية خفاقة ما تمسك العرب بالعلوم والفلسفة لأنها الأساس الوطيد الذى يقوم عليه بنيان الأمم . فلما انصرفوا عن العلوم المختلفة ، وهجروا الفلسفة وطعنوها الطعنة النجلاء ، فقدوا السلاح الذى يستطيعون به الدفاع عن أنفسهم فى معركة الحياة المريرة مع غيرهم من الدول . وفى احياء ذكرى الكندى بعد ألف عام من وفاته تجديد للقومية العربية ، وتذكير للعرب أن قوة القومية فى تعضيد أهلها لها بالاقبال على العلوم والمعارف حتى يرتفع أمام القوميات الأخرى قدرها .

ان التاريخ ليعيد نفسه فى هذه الأيام ، اذ ارتفعت نغمة القومية العربية مرة أخرى ، وأثبت العرب أنهم أكفاء فى هذه المعركة بالأفعال لا بالأقوال ، فساروا على النهج نفسه الذى سار فيه الكندى من قبل ، مع تغيير طفيف فى الصورة يقتضيه المقام . ذلك أنهم بدءوا بالنقل عن الغرب ، ثم اجتازوا مرحلة الترجمة

الى مرحلة الاستقلال فى الفكر ، والابتكار فى العلم ، والمساهمة فى الاختراعات . ثم أصبحت لهم بعد ذلك فلسفة عربية تستمد كيانها من صميم تراثهم العربى الاسلامى ، وتقوم على أسس من العلوم الحديثة .

وقد كان الكندى فيلسوفا عربيا ، جمع فى شخصه معارف زمانه ، ونقلها الى اللسان العربى حتى عد من جملة النقلة ، واهتم بالعلوم الرياضية والطبيعية وبرز فيها ، ثم أقام فلسفة عربيـة تستند الى هذا الأساس العلمى من جانب ، والى الروح الاسلامية من جانب آخر .

ولكننا لم نعرف حتى الآن مَنْ هو الكندى ، ومن آباؤه وأجداده ، وكيف نشأ وتعلم ، وما شخصيته ، وما تآليفـه ، وما هى اتجاهاته العلمية والفلسفية ؟ فلنشرع فى بيان ذلك .

سليل الملك

« يعقوب بن اسحاق الكندى ، فيلسوف العرب ، وأحد أبناء ملوكها » هو العنوان الذى وضعه ابن أبى أصيبعة لترجمة أول الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة . ثم ساق بعد ذلك نسبه على النحو التالى :

« أبو يوسف ، يعقوب ، بن اسحاق ، بن الصباح ، بن عمران ، ابن اسماعيل ، بن محمد ، بن الأشعث ، بن قيس ، بن معدى كرب ، بن معاوية ، بن جبلة ، بن عدى ، بن ربيعة ، بن معاوية الأكبر ، بن الحارث الأصغر ، بن معاوية ، بن الحارث الأكبر ، بن معاوية ، بن ثور ، بن مرتع ، بن كندة ، بن عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، ابن مرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، ابن كهلان ، بن سبأ ، بن يشجب ، بن يعرب ، بن قحطان » .

ينقسم هذا النسب قسمين : الأول فى الجاهلية ، والثانى فى الاسلام . وهمزة الوصل بينهما هو « الأشعث بن قيس » الذى عاش فى الجاهلية ، وقدم على الرسول مع وفد كندة ، وأسلم على يديه .

ويرتفع نسبه فى الجاهلية الى قحطان .

قال اليعقوبى فى تاريخه : ذكرت الروايات ومَنْ يدعى العلم

بالأخبار وأحوال الأمم والقبائل ان أول من ملك من ولد قحطان سبأ بن يعرب بن قحطان ، وكان اسم سبأ « عبد شمس » ، لأنه أول من ملك من ملوك العرب ، وساد فى الأرض ، وسبى السبايا. وكان يعرب بن قحطان أول من حيى بأنعم صباحا أبيت اللعن .

وقد ملك أبناء يعرب بن قحطان على اليمن ، ووقعت لهم أحداث وحروب مشهورة . وتفرعت عن شجرة قحطان قبائل شتى . وكان أول من ذكر اسمه وعرف قدره سبأ ، ومن ولده « كهلان » و « حمير » . ومن قبائل كهلان : طىء ، والأشعر ، وجذام ، ولخم ، ومذحج ، والأزد ، وغيرها .

وكان ملوك اليمن يدينون بعبادة الأصنام فى صدر من ملكهم، ثم دانوا بدين اليهود ، وتلوا التوراة ؛ وذلك أن أحبارا من اليهود صاروا اليهم فعلموهم دين اليهودية .

ووقعت بين كندة وحضرموت حروب أفنت عامتهم ، ودخل أهل اليمن التشتيت والتفريق . حتى اذا انتشروا فى البلاد صارت كندة الى أرض معد فجاورتهم ، ثم ملكوا رجلا منهم كان أول ملوكهم يقال له : مرتع . ثم ملك بعده ابنه ثور ، ومن بعده ابنه معاوية ، ثم ابنه الحارث الأكبر . قال اليعقوبى : « ثم ملك وهب ابن الحارث عشرين سنة ، ثم ملك بعده حجر بن عمرو آكل المرار ثلاثا وعشرين سنة . وهو الذى حالف بين كندة وربيعة » .

ونود أن نقف قليلا عند « آكل المرار » ما معناه ، لأن خبره سيأتى عند الكلام عن الأشعث بن قيس حين قدومه على الرسول عليه السلام .

المرار بالضم شجر مر من أفضل العشب وأضخمه ، اذا أكلته الابل قلصت عنها مشافرها ، فبدت أسنانها . قيل سمى حجر آكل المرار لكثر كان به . وقيل : لأن ابنة له سباها ملك من ملوك سليح يقال له زياد بن هبولة ، فقالت له ابنة حجر : كأنك بأبي قد جاء كأنه جمل آكل المرار ؛ تعنى كاشرا عن أنيابه . وقيل انه كان فى نفر من أصحابه فى سفر فأصابهم الجوع ؛ فأما هو فأكل المرار حتى شبع ونجا ؛ وأما أصحابه فلم يطيقوا ذلك حتى هلك أكثرهم ، ففضل عليهم بصبره على أكله المرار . وتوفى حجر ابن عمرو هذا سنة ٤٥٠ ميلادية .

وذكر أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى خبر كندة فى الجاهلية، فقال : ان كندة لا يعدون من أهل البيوتات ، وانما كانوا ملوكا . وذكر أن الأشعث بن قيس كان ذا قرابة بالنعمان بن المنذر ، وأن كسرى دعا أشرف قبائل العرب فاجتمعوا عنده ، وتكلم كل ناطق بلسان قبيلته ، الى أن قام الأشعث فقال : لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ، وقديم زحفها الأكبر ، وأنا غياث اللزبات. فسئل : لم يا أخا كندة ؟ فأجاب : لأنا ورثنا ملك كندة ، فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبنا الأعظم ، وتوسطنا بحبوحه الأكرم .

كان ذلك خبر كندة فى الجاهلية ، وقفنا به عند الأشعث بن قيس ، وهو الذى كان على رأس وفد كندة الى الرسول . وقد أورد ابن هشام فى سيرته خبره ، نذكره مطولا لأنه يصور أخلاق كندة أبلغ تصوير . قال ابن هشام ناقلا عن ابن اسحاق :

« وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعث بن قيس فى وفد كندة ، فحدثنى الزهرى بن شهاب أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمانين راكبا من كندة ، فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، وقد رجلوا جممهم ، وتكحلوا ، عليهم جبب الحيرة وقد كففوها بالحرير . فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تسلموا ؟ قال : بلى . قال : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟ قال : فشقوه منها ؛ فألقوه .

ثم قال له الأشعث بن قيس : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار ؛ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب ، وربيعة بن الحارث . وكان العباس وربيعة رجلين تاجرين ، وكانا اذا شاعا فى بعض العرب فسئلا ممن هما ، قالا : نحن بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك ؛ وذلك أن كندة كانوا ملوكا . ثم قال لهم : لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ، ولا ننتفى من أبينا . فقال الأشعث بن قيس : هل فرغتم يا معشر كندة ؟ والله لا أسمع رجلا يقولها الا ضربته ثمانين » .

ثم ساق ابن هشام حديثا طويلا يفسر به معنى آكل المرار ، ونسب ذلك الى الحارث بن عمرو بن حجر بن معاوية بن الحارث ابن معاوية بن ثور . وذكر خبرا آخر يتفق مع ما قرره اليعقوبى من أن آكل المرار هو حجر بن عدى ، سمى كذلك لأنه أكل شجرا يقال له المرار .

ولما ارتدت العرب بعد موت النبى عليه السلام ، أرسل أبو بكر الجيوش لحربهم ، وكانت كندة فيمن ارتد . ودارت الحرب ، وكثر القتل فى كندة ، فخرج الأشعث بن قيس ومعه تسعة نفر من حصنهم يطلبون الأمان من زياد بن لبيد الأنصارى قائد المسلمين ، فأجابهم الى ذلك ، وقال : اكتبوا ما شئتم ، ثم هلموا الكتاب حتى أختمه . ففعلوا ، ونسى الأشعث أن يكتب نفسه . ثم فتحوا باب الحصن ، ودخل المسلمون ، فلم يدعوا مقاتلا الا قتلوه ، وأخذوا الأموال والسبى . فلما فرغوا منهم ، دعا الأشعث أولئك النفر والكتاب معهم ، فعرضهم ، فأجاز من فى الكتاب ، فاذا الأشعث ليس منهم ، فأخذ أسيرا الى أبى بكر . ولما خشى القتل قال الأشعث : أو تحتسب فىّ خيرا ، فتطلق اسارى ، وتقيلنى عثرتى ، وتفعل بى مثل ما فعلت بأمثالى ، وترد علىّ زوجتى ؟ — ذلك أنه كان قد خطب أم فروة أخت أبى بكر ، فلما قدم على النبى أخرها الى أن يقدم الثانية ، فمات النبى ، وارتد — فان فعلت ذلك تجدنى خير أهل بلادى لدين الله ؛ فحقن دمه ، ورد عليه أهله .

وقد أنجب الأشعث من أم فروة أخت أبى بكر ابنه «محمد» الجد الرابع ليعقوب الكندى .

حسن اسلام الأشعث ، وشارك فى الفتوح ، وأبلى بلاء حسنا . شهد اليرموك بالشام ، وسار الى العراق فشهد القادسية ، وكان فى جملة الوفد الذى أرسله سعد بن أبى وقاص الى يزد جرد يدعوه الى الاسلام أو الحرب . ثم شهد حرب المدائن